صور من الشعر الحديث في العراق

الاستاذ ابراهيم الوائلي

الرصافي (٢)

وفي قصيدة الرصافي « رقية الصريع » استعراض لأوضاع الأتراك والطرق التي يسلكونها لبلوغ المراكز الحكومية والوصول إلى كراسي الوظائف . وتبدأ هذه القصيدة بالحنين إلى العدل الذي طال انتظاره وضاق الصبر عنه ، وبالصخط على هذه الحكومة التي انحرفت عن الطريق المستقيم فنشرت الفظائع وكتبت صكوك العدل حبرا على ورق ، وجعلت الوظائف سلعا تباع وتشترى ، فلا يستطيع شراءها إلا الغني الجاهل بما نهب وارتشى ، ويعجب الشاعر من أن هذه السوق التي تباع بها الوظائف وتشترى تسمى دار الخلافة :

يا عدل طال الانتظار فعجل ... يا عدل ضاق الصبر عنك فأقبل
كيف القرار على أمور حكومة ... حادت جهن عن الطريق الأمثل
في الملك تفعل من فظائع جورها ... مالم تقل ونقول مالم تفعل
ملأت قراطيس الزمان كتابة ... للعدل وهي بحكمها لم تعدل
أضحت مناصبها تباع وتشترى ... فغدت تفوض للغني الأجهل
تعطى مؤجلة لمن يبتاعها ... ومتى انقضى الأجل المسمى يعزل
فيروح يسرى ثانيا وبما ارتشى ... قد عاد من أهل الثراء الأجزل
فيظل في دار الخلافة راشيا ... حتى يعود بمنصب كالأول
سوق تباع بها المراتب سميت ... دار الخلافة عند من لم يعقل !!

ويعود الشاعر إلى رأيه السالف في هذه الحكومة المستبدة :

أبت السياسة أن تدوم حكومة ... خصت برأي مقدس لم يسأل
مثل الحكومة تستبد بحكمها ... مثل البناء على نقاً متهيل

ويتفق الرصافي مع الزهاوي في مروق الخليفة العثماني من هدى النبي وتركه أحكام القرآن . يتفقان في الفكرة والأسلوب والاستفهام الذي ينطوي على استنكار شديد لأعمال هذا الخليفة ، فقد رأينا الزهاوي يثور على الخليفة ويشجب أعماله وذلك بقوله :

وغريب أن يصل هؤلاء المتقدمون إلى ما وصل إليه العلم الحديث اليوم من تفضيل بث الدعوة في شيء من الغموض أو اللف والدوران ، ونحن نجد اليوم الدول الحديثة وأصحاب الأفكار يقومون بنشر ما يريدون عن طريق كتب أو عن طريق المجلات أو الصحف ، أو عن طريق معاهد يؤسسونها باسم العلم والدرس والثقافة . وها نحن نرى بيننا وحولنا كثيراً من هذا مما يضيق المقام عن سرده . وكأني بهؤلاء الاخوان قد توغلوا في النفس البشرية حتى وصلوا إلى النقطة الحساسة فيها فعرفوا قبل مئات السنين هذه الحقيقة وعرفوا الطريق الذي يصل بهم إلى الغاية .

وليس فينا من ينكر عليهم أدبهم وغوصهم لإلتقاط المعاني والألفاظ واستخلاص الآراء . ولسنا ننكر عليهم توسعهم في المعرفة وامتلاكهم لناصية الكلام والبلاغة والبيان . ولكننا نعرف أنهم كانوا يريدون بث دعوتهم على نطاق واسع ونشرها بين الناس على كافة طبقاتهم ، غير مقتصرة على طائفة ولذلك عمدوا الى وضعها في أسلوب بسيط ممتع تستطيع العامة قبل الخاصة أن تفهمه وأن تستوعبه .

وثمة حقيقة أخرى تظهر بوضوح مدى التفكير البعيد الذي سبقنا الجماعة إليه قبل مئات السنين ، فقد حدث أنه بعد أن ألفت الرسائل أرسلت سرا وبواسطة مبعوثيهم إلى بعض المدن الاسلامية . وفي وقت وفي ساعة متفق عليهما ظهرت هذه الرسائل في مساجد هذه البلاد المهمة وأمكن الاطلاع على ما فيها . وقد يكون هذا جائزا في عصرنا الحالي ، عصر السرعة ، حيث يقوم التليفون واللاسلكي والطائرة . أما يوم كانت واسطة الانتقال الوحيدة الدابة والجمل فانه أمر يدعو إلى الدهشة وإلى إعمال الفكر ... وهكذا سبقنا اخوان الصفا إلى كثير مما نعمد إليه اليوم ، وهكذا سبقونا في الفكرة ثم في كيفية التنفيذ .

حسين الهاشمي

أيأمر ظل الله فى أرضه بما نهى الله عنه والنبى المبجل

ونرى الرصافى هنا يعيد هذه الثورة :

أيكون ظل الله تارك حكمه المنصوص فى آى الكتاب المنزل ؟
أم هل يكون خليفة لرسوله من حاد عن سنن النبى المرسل

وقصيدة عنوانها « آل السلطنة » وقد نظمها على أثر المرسوم الذى صدر بزيادة رواتب البيت المالك ومن يمت إليهم بالمصاهرة والقرابة فى الوقت الذى كانت تركيا تعانى فيه نقصا فى الخزانة ومن هذه القصيدة :

هم يعدون بالمئات ذكورا وإناثا لهم قصور مثاله

أما حياة هؤلاء فانهم :

يأكلون اللباب من كد قوم أعوزتهم سخينة من نخاله

وهم فى حياتهم هذه قد :

حملونا من عيشهم كل عبء ثم زادوا أصهارهم والكلاله

وهذه الحالة التى تدعو إلى الألم :

هى منهم دناءة وشنار وهى منا حماقة وضلاله

وقصيدة عنوانها «تنبيه النيام» وهى لا تقل ثورة وسخطا عن القصائد التى مرت :

عجبت لقوم يخضعون لدولة يسومهم بالموبقات عميدها
وأعجب من ذا أنهم يرهبونها وأموالها منهم ومنهم جنودها

ولا نريد أن نطيل الأخذ من قصائد الرصافى أيام الاستبداد العثمانى فهى كثيرة وكلها على وتيرة واحدة فى الحث على النهوض وتحطيم الأصفاد وأغلال العبودية ، وفى وصف الظلم الذى كان يقع على العراق وغير العراق من الخلفاء العثمانيين وولاتهم .

والآن ننتقل إلى المرحلة الثانية من شعره السياسى وهى مرحلة الدستور . وسنجد الرصافى فى هذه المرحلة باسم الثغر مطمئن النفس ، هادىء الأعصاب لا جموح ولا ثورة ، ولا سخط ولا تذمر لانه استقبل عهدا جديدا كان يتمناه الأحرار ويعملون من أجله فجاءت الأمنية ناضجة دانية القطوف .

ونحب أن نجتزىء من شعره فى هذه المناسبة ما يسمح به البحث وما يكفى فى مجال الشاهد . قال فى قصيدة عنوانها (بعد الدستور) :

سقتنا المعالى من سلافتها صرفا وفتت لنا الدنيا تهنئنا عزفا
وزفت لنا الدستور أحرار جيشنا فأهلا بما زفت وشكرا لمن زفا
ولاحت لنا حرية العيش عندما أماطت لنا الأحرار عن وجهها اسجفا

وهى قصيدة طويلة يتعرض بها لكامل باشا الصدر الأعظم الذى لم يعط هذه الصدارة حقها واختص بالحكم أنصاره ومعاونيه ونسى البلاد وأهلها حتى أغضب الدستور والأمة فثارت عليه .

نحا أن يتم الدست فيها لحزبه علينا وظن الأمر فيها نحا يخفى
لقد أغضب الدستور فعلا ونية
ومن أعلنوا الدستور والشعب والصحفا

ثم يخاطب الصدر الجديد ومجلس النواب ويذكره بالعراق وما يجرى به :

فيا أيها الصدر الجديد انتبه به فاياك أن تطغى وأن تشتى العطفا
ويا مجلس النواب سر غير عاثر إلى المجد لا تلقى كلا لا ولا ضعفا
ولا تنس مغبر العراق وأهله فإن البلاء الجم من حوله احتفا

وقصيدة أخرى عنوانها « تموز الحرية » وتموز هو شهر بوليه وفيه كانت عودة الدستور :

إذا انقضى « مارت » فاكسر خلفه الكوزا
واجعل بتموز إن أدركت تموزا
أكرم بتموز شهرا ان عاشره قد كان للشرق إكراما وتعزيزا
شهر به الناس قد أضحت محررة
من رق من كان يقفو إثر جنكيزا

ومن المصادفات الجميلة ان شهر تموز كان فيه انتصار الفرنسيين على الحكومة وهدمهم سجن الباستيل ، فالرصافى يتحدث عن هذه المصادفة ويقارن بين انتصار الفرنسيين الثوار وبين انتصار الأحرار الدستوريين فى تركيا :

سل أهل (باريز) عن تموز تلق لهم
يوما به كان مشهودا لباريزا
كانت لهم فيه لما ثار ثائرهم
بسالة هدت البستيل مبزوزا
وان تموز شهر قام فيه لنا
على البقاع لواء العز مركوزا
فى شهر تموز صادفنا لما وعدت
بيض الصوارم بالدستور تنجيزا

هى المساواة عمتنا فما تركت
فضلا لبعض على بعض وتمييزا

ويستمر الرصافى على هذا النسق فى مدح عموز حتى يتمنى أن ينظم النجوم ويخطها بأقلام من الماس ومداد من الذهب على الأفق الرحيب مدحاً لهذا الشهر المبارك .

وقصيدة « المجلس العموى » وفيها يشير إلى مجلس النواب التركى الذى كان انعقاده نتيجة للدستور :

ياشراق بشرك أبدى شملك الفلك وزال عنك وعن آفاقك الحلك
أضحى بك القوم أحرارا فداعتصموا من النجاة بحبل ليس ينبتك

والقصيدة طويلة يدعو فيها الشاعر إلى نشر العلم والتعليم وتشييد المدارس لأن كل مدرسة تهدم سجنا أن اعتدوا فى الأرض أو فتكوا .

ولا نستطيع بهذه المناسبة أن نغفل الاشارة إلى قصيدته : « وقفة عند قصر يلدز » وقد نظمها بعد خلع السلطان عبد الحميد ونفيه إلى سلانيك . وهنا يظهر الشاعر كل ما فى نفسه من حنق وغيظ ازاء هذا القصر الذى شهد كثيرا من مصارع الأحرار كما شهد أقصى درجات البذخ والترف :

لمن القصر لايجيب سؤالى أهلات ربوعه أم خوالى ؟
مشمخر البناء حيث تراءى باليا عهده بلى الاطلال
لم تصبه زلازل الأرض لكن قد رمته السماء بالزلزال

ثم يخاطب القصر :

قصر عبد الحميد أنت ولكن أين ياقصر أين عرش الجلال
أين خاقانك الذى كان يدعى قاسم الرزق باعث الآجال

ويشير إلى فترة الثلاثين سنة التى مرت بين إلغاء الدستور وعودته :

قد تخونتنا ثلاثين عاماً جئت فيها لنا بكل محال
تلك أعوام رفعة الأدانى تلك أعوام حطة للأعالى

وبعد وقفة طويلة إلى جانب القصر يودعه بمثل ما حياه :

فابق ياقصر عانس الوجه كيما ينهض العدل ناشطا عن عقال
إنما نحن أمة تدرأ الضيم وتأبى أن تستكين لوالى

ويلاحظ أن الرصافى حين يتحدث بضمير المتكلمين فى كل قصائده مما يدل على أن ميله للدستوريين وانحيازه إلى جانبهم لم يكن فى حدود الشعور والتفكير فحسب وإنما كان فى مجال العمل والسعى أيضا .

هذه نماذج استعرضناها شواهد على موقف الرصافى من الدستور وهى جزء مما نظمه فى هذه المناسبة وقد دلت على ميله الشديد إلى الدستوريين وتأييده لمواقفهم .

هذا الشاعر الذى ثار على الاستبداد غير هياب ولا وجل وحمل معول الشعر يهدم به صرح عبد الحميد مع الهادمين حتى استتب الأمر وأعلن الدستور فاستبشر به وفرح وغنى ومجد وجدناه إلى جانب ذلك يمدح الأتراك ويتقرب إلى بعض ولاتهم ، وهذه هى النقطة الثالثة التى نحب أن نشير إليها عند الرصافى وندرسها على ضوء شعره لنرى إلى أى حد كان يميل إلى العثمانيين وفى أى نطاق كان يمدح من يمدحه منهم . والذى نجب الإشارة إليه أن المدح الذى نقصده هنا لا يعنى شعره فى عودة الدستور الذى كان يستلزم أن يمدح به أنصار الدستور من الأتراك أنفسهم وإنما يعنى المدح الذى قاله فى غير هذه المناسبة حتى نستطيع أن نعد هذا الشعر مرحلة قائمة بذاتها ولونا يتميز عن الألوان الأخر .

للرصافى فى مدح الأتراك قصائد نظمت فى مناسبات خاصة كانت تستدعى الشاعر أن يستجيب لها ولم يكن فى هذه القصائد كما يبدو — مدفوع بدافع الطمع أو الزلفى ولا مأخوذا بالمدح المجرد بل اتفق أن جدت بعض الحوادث التى هزت إحساس الشاعر وأهابت به إلى أن ينظم فيها . ومن هذه القصائد قصيدة فى مدح « حازم بك » والى بغداد وعنوانها « السد فى بغداد » وكانت مناسبتها انكسار أحد السدود وتسرب المياه إلى بغداد وقد بذل هذا الوالى أقصى ما تستطيع لدرء الخطر عن المدينة ولم نجد فى فى القصيدة إلا وصفا للسد وحوادث الغرق التى نجمت عن انكساره ؛ وفيها بعض الأبيات التى تشير إلى ما بذل الوالى من جهد يستحق التنويه به . وليس فى القصيدة أى مدح للدولة العثمانية .

وقصيدة عنوانها « عند سياحة السلطان » نظمها فى مدح السلطان رشاد عندما ساح فى بلاد الألبان ومقدونية ابان الفتن التى كانت تشعلها الأقطار البلقانية وكان للعرب نصيب كبير فى اخماد تلك الفتن فكان أن تعرض الشاعر لهذا الحادث ومجد العرب ومواقفهم :

اما بنو العرب فالاخلاص يرفعهم إلى مقام على الاقوام ممتاز
إذ هم عماد لعرش أنت ماسكه فاضرب بنات العدا منهم بأبواز

ولم يكن الشاعر ليمدح السلطان إلا لأنه كان متمسكا بالدستور :

ماذا على ملك الدستور من وطن لو جال منه بأطراف وأجواز

فالقصيدة إذن مستوحاة من العقيدة الدينية والعاطفة القومية والمبدأ الدستوري وهذه المنابع الثلاثة تكفي لأن يبرر موقف الشاعر هنا .

وقصيدة عنوانها « الوطن والجهاد » قالها عندما دخلت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الكبرى وقد دعا فيها العرب والمسلمين إلى الجهاد وقد شاركه في هذه كثير من الشعراء آنذاك ، ولا لوم على الشاعر في هذه الصرخة ما دام المهاجمون هم الأفرنج وما دامت البلاد المغزوة هي بلاد المسلمين ، وما دام الحكم التركي دستوريا :

ياقوم إن العدا قد هاجموا الوطنا
فانضوا الصوارم واحموا الاهل والسكنا
ان لم تموتوا كراما في مواطنكم
منم أذلاء فيها ميتة الجبنا
لا عذر للمسلمين اليوم إن وهنوا
في هوشة ذل فيها كل من وهنا

ويندد بموقف السلطان حسين كامل ووزيره حسين رشدي باشا في مصر لأنهما شايعا الأنجليز في هذه الحرب ولم يساعدا الحكومة العثمانية في حربها مع الأعداء :

قل للحسينين في مصر ويد كما قد خنتما الله والإسلام والوطنا
شايعتما الأنجليز اليوم من سفه فالله ما كان هذا منكما حسنا

كما ندد حافظ بثورة الهاشميين على الأتراك بتأييد الأنجليز .

وقصيدة عنوانها (نواح دجلة) وقد نظمها جوابا على عتاب الشاعر التركي سليمان نظيف وكان هذا الشاعر قد نظم قصيدة يعاتب بها بغداد على أثر سقوطها بيد الأنجليز فأجابه الرصافي عليها ، وقصيدة الرصافي هذه على ما بها من مدح للعثمانيين يبررها كونها مجاملة شاعر لصديقه وكونها نظمت بعد احتلال الأنجليز الذين لم يستقبلهم الشاعر — كأي شاعر آخر — إلا كما يستقبل أي فاتح مستعمر . ويظهر شاعرنا في هذه القصيدة بمظهر الوفي الحافظ على العهود فدجله بعد العثمانيين قد أصبحت نهبة للعدو الجديد فلا مساؤها مساء ولا صباحها صباح وانها تتمنى لو يشيها أولئك الذين ألبسوها تاجاً من فخارهم ووشحوها براية الهلال :

كيف يغضون عن إغاثة واد زانه من ودادهم اوضاح
فعليه من فخر عثمان تاج وله راية الهلال وشاح

ومع هذا فإن الرصافي لم يترك عاطفة الوفاء تتغلب على نزعته الواقعية التي كانت تهاجم الأتراك وتثور على سياستهم بين حين وآخر ؛ فهذا نهر دجلة يتحدث على لسان الشاعر قائلا :

أنا باق على الوفاء وان كان بقلبي ممن أحب جراح
فاليهم ومنهم اليوم أشكو بلغيهم شكايتي بارياح

وإذا كان لابد أن نقف لحظة مع المنددين بمواقف الرصافي إلى جانب الأتراك فإنما نقف معهم في قصيدته يمدح بها « مصطفى كمال » عندما أنتصر على اليونان سنة ١٩٢٣ م أي في الوقت الذي كان يعيش فيه الرصافي تحت ظل الحكم الوطني في العراق وليست مآخذنا على الشاعر أن يمدح مصطفى كمال وهو محرر تركيا من استبداد السلاطين ، ولا أن يمدحه في هذا الوقت والعراق ينتقل من استعمار إلى آخر وإنما نأخذ عليه اندفاع العاطفة في أقصى أشواطها إلى تمجيد اليونان ونكران تاريخهم القديم وفضلهم على العقل البشري فيقول :

هم اليونان ألأم كل قوم واخوف في الوغى من فرخ قبج
أرق سجية منهم وأرق حير الوحش سارحة بمرج
فلا تغررك أوجههم بياضا فان طباعهم كطباع زنج

وقد يكون عذر الشاعر أن هؤلاء الذين حاربهم مصطفى كمال هم من أوشاب اليونان .

هذا هو الرصافي في مواقفه السياسية ؛ وهذا هو الرصافي الشاعر العاطفي كما عرفناه في حدود العاطفة التي لا تخضع لمقياس ولا تسير في خط واحد بل هي كصفحة الغدير تتموج في موكب النسيم وتثور في هبوب العاصفة وتهدأ حين تصفو الاجواء . ولو أننا درسنا الرصافي في نطاق النزعتين والسطحيين لأخرجنا الشعر عن طبيعته والشاعر عن مكانته ، وليس هذا من النقد النزيه في شيء ولا من حق الشاعر في مكان .

ابراهيم الوائلي